أقل من المجانية ومن اليسر ! الحلم الجميل لا يسجل وحدة على الورق ، فعلى حواف الحلم تظل كوابيس الحرب والموت . ان رسوم الاطفال تقدم هذا « الكل » الطفولي ، المكثف ، لونا وتشكيلا وموضوعا . وقيمتها الاساسية في انها تضع بين ايدينا هذا الكل الطفولي ، الثري .

ان هذه الرسوم كي نفهمها حقا ، ينبغي ان تكوّن تدراتنا على « الادراك الكلي » وعلى « الرؤية الكلية » ، واستجماع كل القدرات على التجاوز والامتداد والتجول بين ابعاد لامتناهية من الزمان والمكان ، ومعايشة كل التفاصيل ، واللحظات الملونة والايحاءات الرمزية، وتمثل الكلمات اللثغاء، وكافة الاخطاء اللغوية المعبرة ، والمسجلة على حواف الرسوم وخلالها . اذ لا يمكن ابدا ، وخصوصا أمام رسوم الاطفال ، ان ننظر من خلال منظارنا الذي يتلمس الاشياء باعتياديتها اليومية . مع ذلك ، فان ثمة من يعتقد ، انه لن يستطيع « استمزاج » كل هذا الخليط من الاشياء والرموز والاشكال المتمثلة في رسوم الاطفال ، ولكن هذا لا يضير الاطفال، الذين لا يتجاوزون الواقع، مهما بلغ بهم الخيال .

يقول سرل برت « ان تذوق الاطفال ، لا سيما أولئك الذين تحت الثامنة من العمر ، يظهر أن له علاقة ايجابية بتذوق الفنانين ونقاد الفن »(١٩). ذلك ان كل المحاولات الحديثة في الفن ، من اسقاط للجدار السابع ، الى اسقاط المعمار المسرحي التقليدي ، الى التكوينات الديناميية الحية والتجسيم في التصوير ، بل ان الايقاعات الداخلية في الشعر ومحاولة تجاوز عقدة اللغة والصوت ، ما هي الا تمثلات واعية من (الاطفال الكبار) لجعل الفن اقدر على صياغة علاقاته مع العالم والجمهور في هذا العصر ، عصر آلة الانتاج الضخمة ، التي بقدر ما ولدت من تقدم ، ولدت بالمقابل علاقات انسانية واخلاقية وثقافية متأزمة . واخيرا ، فان اطفال مخيم البقعة ، ما زالوا اقدر منا على جعل علاقة الفن بالحياة بمثل هذه الحيوية والاتصال والتجدد ، اذ انهم — رغم كل ما عرفوه — لا يزالون يملكون المقدرة السحرية على الامتداد ، وعلى تكثيف العالم ، وعلى رؤيته دفعة واحدة ، عبر رسمه وتلوينه ، هذه المقدرة الرائعة ، نسميها من قبيل المزاح او السخرية « خربشة » . انهم جريئون — عادة — في ابتداع الحيل وفي امتشاق المستحيل ، فامتطاء غيمة او العبث بالنجوم ، بنظرهم اكثر واقعية من كل تقديراتنا القائمة على الرزانة العلمية والتجربة والقياس .

ملاحظات اولية حول التجربة

١. اختير مخيم البقعة ليكون موضع التجربة لعدة اسباب ، اهمها وجود اكبر تجمع بشري من النازحين داخل مخيم(٢٠). ولوجود عدد كبير من مدارس الاطفال(٢١) من جميع بقاع فلسطين ومناطقها ، بحيث يشكل المخيم ارضا نموذجية للتجربة ، تعيش عليها ابرز رموز القضية الفلسطينية في ،طوراتها المعاصرة : حركة المقاومة الفلسطينية . مثلما ان المخيم وهو احد المظاهر المترتبة على الحرب والاحتلال والنزوح ، يكوّن اطارا اجتماعيا واسعا لدراسة الملامح القديمة والحديثة لبنية المجتمع الفلسطيني ومؤسساته المختلفة في فترة محددة .

٢. اختيرت ألوان الباستيل لعمل الرسوم ، وذلك لسهولة استعمالها وتحريكها على الورق . كما استخدمت بصورة محدودة خامات اخرى مثل الالوان المائية ، والاقلام الخشبية الملونة ، واقلام الرصاص ، والفلوماستر ، كل حسب حاجة الموضوعات وطبيعة هذه الخامات . وروعيت ، عند استخدام هذه المواد ، خبرات الطفل ، وقابليته ومزاجه الخاص في التلوين . غير ان ألوان الباستيل استخدمت بصورة رئيسية لكونها خامة مناسبة للاطفال الذين ليست لهم خبرة سابقة في الرسم .

٣. اشترك في التجربة مئات الاطفال من مختلف الاعمار ، فتراوحت ما بين سن ٣ سنوات — ١٤ سنة . وبشكل خاص الاطفال في الصفوف الدنيا ، ما بين الاول الابتدائي والسادس الابتدائي . ومجموعات اخرى من الاطفال في سن الروضة ، ومجموعات صغيرة في سن ادنى من الروضة (٣ سنوات) ، وبعض الطلبة في سن الاعدادي .

٤. لوحظ ان مجموعات كبيرة من الاطفال تمسك بأصابع الالوان لاول مرة ، وخاصة في السنوات الدنيا ، ونادرا ما تعاملت مجموعة كبيرة من الاطفال مع الالوان من قبل ذلك(٢٢). وقد انعكس ذلك في النتائج الاولية من الرسوم ، حيث اتسمت معالجات الاطفال ، للمساحات والخطوط بالفوضى